مخاطر التطرف الديني

الشيخ عبد الله بن بيه

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

مداخلة الشيخ/ عبدالله بن بيـــّه

نائب رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، رئيس المركز العالمي للتجديد والترشيد

أيها الإخوة الأفاضل/ كل باسمه وصالح وسمه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد، فقد كنت مزمعاً السفر ومجمعاً عليه، للحضور معكم تلبية للدعوة الكريمة التي تلقيتها من معالي الأخ الفاضل السيد/ دحان ولد أحمد محمود، إلا أن ظروفي الصحية والعملية وبعد الشُّقة كل ذالك حال دون تنفيذ العزم.

ولهذا أرسل إليكم هذا المداخلة عملا بنصيحة الشاعر:

إذا الإخوان فاتهم التلاقي فما صلة بأوفى من كتاب

فهذا إذاً كتابي لديكم ومعذرتي إليكم.

وفي هذه المداخلة تحدثت حديثاً عاماً عن الإرهاب: تعريفاً وأسباباً وعلاجاً، مع التأكيد على الزاوية الدينية، ثم ختمته بكلمة عما يجري في مالي وتوصيات عامة، فلعلكم تجدون فيها شيئاً نافعاً.

التعريف: إنّ الإرهاب Terrorisme الذي أصبح حدث الساعة، وحديث القانونيين والساسة، ينبغي تعريفه مستقى من نبعه الأصلي، ومقتطفاً من منبته الغربي، فمصطلح الإرهاب Terrorisme ظهر 1798م في ملحق الأكاديمية الفرنسية، لوصف حكومة الثورة الفرنسية، التي كانت ترهب الشعب، وبخاصة الملكيين، وإن كانت الكلمة ظهرت في نوفمبر 1794م باسم الحرية والثورة، فكان الإرهاب وصفاً لنظام حكم، إلا أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر أصبح المصطلح يتعلق بعنف صادر عن أفراد أو جماعات خارج القانون.

أول عملية وصفت بالإرهابية في العصور الحديثة، كانت محاولة اغتيال نابليون بونابرت 1800م.

ويعرف في الموسوعة بأنه أعمال عنيفة اعتداءات واغتيالات واختطاف وتخريب موجهة إلى الناس حيث يكون وقعها النفسي يتجاوز كثيراً الضحايا مباشرة من أجل صدم الرأي العام. ويُعرف دولياً أول مرة من طرف "عصبة الأمم1937" بأنه: عمل إجرامي، يهدف بطبيعته إلى إثارة الرعب والخوف، موجه لأشخاص معينين، أو مجموعة من الأشخاص أو للعموم."

وأقترح صياغة تعريف الجريمة، وتوصيفها، على ضوء جريمتي الحرابة والبغي، والتطور في الفكر القانوني الناشئ عن الممارسة، ودمج بعض الجرائم المنظمة الأخرى، كترويج المخدرات التي تعتبر حرابة، عند الإمام مالك، ليكون المصطلح " تخريب" subversion أي: ليكون الإرهاب عبارة عن: الأعمال العنيفة، التي ترمي إلي التدمير والإفساد وترويع الآمنين، بقتل الأبرياء وتدمير المنشآت وترويج المخدرات،

وكذلك الأعمال العنيفة، التي تقوم بها العصابات، ضد السلطة الشرعية، لخلق جو عام من العصيان، يشل النشاط العام، ويخوف المدنيين، أو لقلب النظام الشرعي القائم.

إن هذا التعريف، في رأيي يستجيب للهموم التي يشعر بها المتعاطي مع قضية الأمن، وينطلق من أرضية الفقه والتراث والبيئة العقدية للأمة، كما أن مصطلح "التخريب" هو مصطلح واضح، يفهمه المثقف والعامي على السواء.

يرادفه في الفقه الإسلامي ثلاث جرائم:

1) الحرابة 2) البغي 3) الإفساد في الأرض.

1-الحرابة: هي قطع الطريق على الناس، بترويعهم وأخذ مالهم، وعرفها الحنابلة بأن: "المحاربين هم الذين يعرضون للقوم بالسلاح في الصحراء، فيغتصبون المال مجاهرة". هكذا عرفها أبو القاسم الخرقي وهو مذهب أحمد وأبي حنيفة.

أما الشافعية فقد أضافوا عنصراً آخر، وهو أن المحارب: هو من يفعل ما تقدم من غصب أموال الناس، وإشهار السلاح، ولكنهم لم يشترطوا أن يكون ذلك في صحراء، بل لو فعله في المصر، لكان محارباً أيضا.

أما المالكية فقد عرفوه بأنه: قاطع الطريق، الذي يمنع الناس من سلوكها.

هذا العنصر يكفي لاعتباره محارباً، يقول خليل: "المحارب قاطع طريق لمنع سلوك".

البغي: فقد عرفه الفقهاء بأنه الخروج على الإمام الحق بغير حق.

الفساد في الأرض: من يستبيح دماء الناس، وأموالهم، ويكفر العموم، ولو لم يقم بأي عمل مخل بالأمن، يعتبر مجرماً، جريمة فساد في الأرض.

الأسباب:

إن أسباب الإرهاب، موضوع تخرصات، وتخمينات كثيرة، speculation لأن كل جهة تريد أن تحمله رؤيتها، أو أجندتها الخاصة.

لقد قررت مجموعة دراسية غربية من جامعة منتريال كندا: خمسة أسباب نوجزها فيما يلي:

1) البواعث الشخصية من الناحية النفسية.

2) إن الديانة هي أحد الأسباب: غالباً ممزوجاً بأسباب أخرى، لكن الدين يقوم بدور تأطير للنزاعات، بل أحياناً دور مكرس للنزاعات. ولاحظ أنه لا يمكن اعتبار أية ديانة مؤهلة للإرهاب، أكثر من غيرها من الديانات الأخرى.

بالإضافة إلى الإحباط والإهانة والفشل.

3) الأسباب السياسية: العلاقة بين انعدام الديمقراطية، وبين ظاهرة الإرهاب؛ لأن الديمقراطية تسمح بالتعبير عن الاختلاف، في الصحافة الحرة، إلا أنها تهيئ منبراً للإرهابيين، لكنها تسمح للأقليات بالوصول إلى حقوقها.

4) أسباب اقتصادية: قد لا يكون الفقر سبباً مباشراً للإرهاب، لكن عدم المساواة، والتمييز ضد الفقراء، وعدم إتاحة الفرص للأقليات، وللمهاجرين، هي التي قد تكون بؤراً للإرهاب. وتشير المجموعة إلى العولمة، بأنها سببت الإرهاب، بفتح الحدود بين الدول، حيث أصبح من الصعوبة بمكان مراقبتها، وأنها أيضاً أدت إلى إشكالات الهوية.

5) الأسباب الثقافية: دون أن تشرح المجموعة هذه الأسباب.

وفي الحقيقة فإن عامل الديانة يمكن أن ندمجه في عامل الثقافة، بمعناها الأوسع، ولنعبر عنها هنا بالعامل الإيديولوجي، الذي تنشأ عنه ثقافة العنف.

وحيث إن الحديث عن الدين فيمكن أن نعدل عن كلمة "الدين" لنعبر عنها بلفظ "التدين" الذي هو عبارة عن فهم خاص للدين، قد يحمل صاحبه على سلوكيات تناقض أحياناً كثيرة أصل الدين الصحيح، الذي يزعم أنه يتصرف باسمه ومن أجله. وبهذا نبعد الدين عن ساحة الاتهام لنحصر الأمر في استعمال المتدين وتعامله.

إن العاطفة الدينية كالطاقة يمكن أن تكون سببا للرخاء والنماء والحدائق الغناء ومد جسور المحبة والإخاء، كما يمكن أن تستعمل لتصنيع قنابل للتفجير والتدمير ونشر الحرب والرعب بين الأمم.

إن الطريقة التي يصبح بها التيار الفكري -أو التيار الديني- تياراً حاداً، لا يمكن أن نضبطها، إنها طريقة معقدة، تعقيد حياة الإنسان، ونوازعه، وحوافزه، ودوافعه، وبيئته، ومحيطه.

إنه من الطبيعي أن توجد تيارات دينية إلا أن هذه التوجهات في المجتمعات المحافظة، عندما تتجاوز حدها، لتكون تياراً حاداً، يعبر عن نفسه بالعنف، ويلغي وجود الآخر، يحكم عليها بأنها ضارة، وليست في صالح الإنسان؛ إذ أصبحت تشكل خطراً على المجتمع، تنطبق عليها القاعدة الفقهية التي تقول: "الشيء إذا خرج عن حده انقلب على ضده".

لقد أعادت مقولات الخوارج، وهي تلبس مسوح الإسلام، وترفع شعار الجهاد.

وإنّ قلة الفقه في الشريعة نصوصاً ومقاصد، وعدم فقه الواقع، أوقعها في متاهات التكفير والتضليل، ومحاكمة المسلمين، اعتماداً على مرجعية، سمحت لنفسها بالحكم، والفتوى، في أخطر القضايا، وهي قضايا الدماء والأموال والأعراض.

ولا يعدو الأمر، أن يكون فهماً خاطئاً، وتصوراً منحرفاً، لأفراد، ومجموعة، لا يمثلون السواد الأعظم، ولا الرأي المعتمد.

إن اعتماد أسلوب التعميم، يُعتم الرؤية، ويعقد الحل، بالإضافة إلى أنه مجانب للصواب، ومجاف للحقائق، ويمكن أن تعتبر بصفة عامة، أن الثقافة المأزومة، المشار إليها، تتميز بضيق الأفق، وعدم الاكتراث لرأي الآخر، والانغلاق الفكري، والتعصب، وعدم قبول الاختلاف، والحرفية في التفسير، وغياب فقه المقاصد، واختلال ميزان المصالح والمفاسد، مما نشأ عنه غلو في قضايا معينة، هي مفتاح شخصية الإرهاب، وقَنسُ أسسه، وجذر جذوره وهي: تكفير الحاكم، وفي أحسن

الأحوال الإفتيات عليه، واعتباره غير موجود شرعاً، وأحياناً تكفير المجتمع بأسره، مع ما ينشأ عن هذا الموقف من استباحة الدماء، والأموال.
وانتحال صلاحيات الحاكم، عن طريق بيعة أمير المجموعة، حيث يقرر الحرب، والسلام، والجهاد، والهدنة، على أسس مفاهيم مغلوطة:- للجهاد - والولاء والبراء.
ما هو الحل ؟

إن الحلول متعددة، ويمكن أحياناً التأكيد على بعضها، أو الاعتماد على بعضها، حسب طبيعة الإرهاب المستهدف، وتارة تكون إستراتجية المواجهة، متعددة الأوجه، طبقاً لنوعية الإرهاب، فتستعمل الوسائل الأمنية، والثقافية، والنفسية، والإجراءات السياسية، في خطة متكاملة.
وهنا يكون الاختبار الحقيقي لذكاء المتعاملين مع مشكلة الإرهاب، وكفاءتهم، وقدرتهم على الاختيار في البدائل المتاحة، لاختيار الحل الأقل تكلفة، والأكثر نجاعة، مثل الطبيب الماهر، الذي يعالج داء مزمناً، بجرعات محددة، من أدوية منوعة، إن البعض يسمي ذلك بسياسة "الجزرة والعصا" ولعل الوصف الأصح، هو سياسة وضع كل شيء في مكانه المناسب، على حد قول المتنبي:
وَوَضعُ النَدى في مَوضِعِ السَيفِ للعِدا مُضِرٌّ كَوَضعِ السَيفِ في مَوضِعِ النَدى
إن التكلفة، تقاس بالأرواح البشرية، وبالنفقات المادية، كما تقاس بالمدى الزمني، الذي قد تمتد إليه الدورة الإرهابية.
إن هذه الحلول، لتكون شاملة، يجب أن تكون متكاملة، ولهذا، فمنها السياسي، والاقتصادي، ومنها الثقافي والإعلامي، وهي حلول، تزاوج بين الردع والزجر، وبين الإصلاح الاجتماعي والسياسي والثقافي، وبعبارة أخرى، هي علاج ووقاية.
علاج للفئة المتورطة، ووقاية للمجتمع، من أن يخترقه الإرهاب، أو تنمو فيه بؤره، وبالتالي يستعصي الشفاء منها إلى حين.

إن الوضع الحالي في منطقة الساحل وبخاصة في شمال مالي وضع مركب بالنظر إلى تنوع مطالب المجموعات المشتركة فيها وتعدد مشاربها مما يعقد مهمة المتعاطي مع هذه القضية.

في البداية: يجب أن نقول بأن الحرب أمر سيء من حيث المبدأ، وكما يقول المثل: "آخر الدواء الكيّ". فلا المجموعات المسلحة في شمال مالي استشارت العلماء في الأعمال التي كانت تقوم بها، ولا أنصتت لنصائحهم ومنها بيانات الإتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ولا القوى العالمية -التي تدخلت عسكريا- استعانت بحكمتهم –مع تقديرنا لجهود علماء مالي التي تضمنها بيانهم.

ولهذا فإن ما أقدمه هنا هو عبارة عن نصائح عامة موجهة إلى العلماء خاصة، وإلى عامة أهل المنطقة، ممن يقبل النصح { لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد} إلا أنه يمكن أن نوصي بسبع وصايا:

أولاً: أن يقوم العلماء بتوضيح وتصحيح بعض المفاهيم كمفهوم الجهاد.

لتوضيح أن هذه الأعمال ليست طريقاً إلى الجنة، وأن الطرق إلى الجنة كثيرة منها عمارة المساجد وتعلم العلم وتعليمه ومساعدة الفقراء وإغاثة الملهوفين ومعالجة المرضى ومشاريع التنمية، كما يقول ابن تيمية في تعريفه للجهاد: هو شامل لأنواع العبادات الظاهرة والباطنة، ومنها: محبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والصبر، والزهد، وذكر الله تعالى ومنه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب، ومنه ما هو بالدعوة والحجة واللسان والرأي والتدبير والصناعة والمال.[1]

ثانياً: على وسائل الإعلام أن تكف عن وصف الإرهابيين بالإسلاميين.

وأن يوضع حد فاصل بين الإسلام وهذه الأعمال توضح أن الإرهاب لا يختص بدين دون آخر، ولا ببقعة دون أخرى، وأن الإسلام لا يجوز أن ينسب إليه إرهاب المرهبين، واعتداء المعتدين، حتى ولو كان بعض المسلمين في لحظة من التاريخ، ودورة من دورات الزمن، انخرطوا في سلك الإرهاب.

[1] – الاختيارات للبعلي ص532

وفي منظومة الحروب اللاشرعية، فيجب أن لا ننسى أن الغالبية العظمى، لا تعتنق ذلك الفكر، وأن المسلمين هم ضحايا الإرهاب، بمختلف أشكاله وصوره.

ثالثاً: على كل الجهات أن تكون حذرة حتى لا تأخذ البريء بالمجرم.

ويجب أن نؤكد على قاعدة عدم أخذ البريء بالمجرم وهى القاعدة القرآنية التوراتية الإبراهمية بنص القرآن {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى}

وهى قاعدة تعترف بها كل الشرائع والقوانين الدولية.

رابعاً: إن مكافحة الإرهاب يجب أن تكون مقرونة بجهود صادقة لإزالة المظالم، والوصول إلى مصالحات بين كل العناصر في هذه المنطقة وفي هذا الظرف.

خامساً: إن مشاريع التنمية وورشات العمل التي تمنح أملا للشباب والعاطلين لها أهمية كبرى لتفريغ طاقات الشباب في البناء والتعمير بدلا من التخريب والتدمير.

سادساً: وهذه أهم توصية يجب أن يستنفر علماء المنطقة من موريتانيا ومالي والجزائر والسنغال والمغرب وتونس وليبيا وبوركينا واتشاد والنيجر. وأن يكونوا لجنة من الحكماء والصلحاء للدعوة إلى المصالحات والتوافقات والتنازلات المتبادلة لإبعاد شبح العنصرية والعرقية والدينية عما يجري في مالي.

فهذه المنطقة كانت واحة سلام وتمازج وبين السكان الذين صهر وحدتهم التاريخ والجغرافيا والدين والثقافة، فهم إخوان قبل وصول طلائع الاستعمار الغربي، وهم إخوان بعد ذلك.

إن هذا الحزام الإفريقي يجب أن يظل حزام سلام ووئام وتسامح وتصالح، لا يجوز أن تُخلِّف الحرب ضغائن في المنطقة وأحقاداً تسيء على سكان المنطقة جميعاً ولأمد غير محدود.

لهذا فإن حكومات المنطقة والفاعلين السياسيين والاجتماعين ووسائل الإعلام -كل أولئك- عليهم أن يسهموا في جهود إطفاء الحرائق والمحافظة على اللحمة.

سابعا: ولتأكيد الفقرة السابقة فإن جهود الإغاثة يجب أن تكون موجهة للجميع دون تمييز، وهنا أنوه بالجهد الكبير لبلدي موريتانيا، راجيا لها أن يحفظها الله تعالى من الشرور ومن الفتن.

سائلا المولى جل وعلا لندوتكم هذه التوفيق والنجاح، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته